فردوس موافق لحالة الذين يحلون فيهِ . أليست هذه المساكن يا مرزا مما يحق ان يسعى اليهِ. أتكون الحياة شقيَّة اذا كان لك فيها مجال لانتهاز الفرصة والوصول الى هذا الثواب العظيم. أتخاف الموت الذي يحملك الى هذه السعادة العظمى . لا تقل خلق الانسان عبثاً وقد ذُخرت لهُ مثل هذه الابديَّة . ثم حدَّقت ببصري طويلاً في ما رأيتهُ وقلت لهُ اخيرًا اني ابتهل اليك الآن ان تكشف لي الاسرار المحجوبة وراء ستار الغيوم المقلة التي تغطي البحر الى الجانب الآخر من الصخر الذي يشقّ البحر الى نصفين . فلم يجبني بشيء ولما التفتّ لأعيد سؤالي رأيت انهُ قد فارقني ثم التفتّ الى ما كنت قد شاهدتهُ وتأملتهُ طويلاً وبدلاً من النهر الجاري والجسر وقناطره والجزر الجميلة لم ارَ الاَّ الوادي الطويل بجانب بغداد والثيران والغنم ترعى فيهِ يوحنا ورتبات

الفراسة في الحكايات

كلُّ من يقرأ روايات السر ارثر كونن دويل من مشاهير الروائيين الانكليز يرى في بعضها ذكر رجل اسمهُ "شرلوك هولمس" اختلقتهُ مخيلة الكاتب وجادت عليهِ بصنوف المكر واساليب الحكمة والدهاء حتى صيرتهُ مثالاً لقوة الفراسة والاستدلال وانموذجاً كاملاً للوصل بين العلل والمعلولات تدرجاً الى استجلاء الغوامض وابراز المكنونات في حوادث الجنايات

وليس الكاتب يبتكر هذه الفكرة ولا هو باول من ابتدعها في الروايات والحكايات الموضوعة بل هي فكرة قديمة جرى عليها كثيرون من الكتاب الاولين فاقتبسها منهم ومصدر هذه الفكرة الشرق ككثير غيرها مما نشأ فيهِ فاقتبستهُ الغرب منهُ . فما من احد الاَّ ويعرف حكاية الدرويش والتاجرين وهي شرقية الاصل ترجمت الى جميع اللغات الغربية ومآلها ان درويشاً كان يسير في الصحراء فصادف تاجرين فقال لما انكما اضعتما جملاً فقالا نعم . قال الم يكن اعور العين اليمنى واعرج الرجل اليسرى . قالا بلى . قال ألم يكن فاقدًا سنًّا من اسنانهِ. قالا بلى . قال ألم يكن محمَّلاً عسلاً عن جانب وقمحاً عن الجانب الآخر . قالا بلى ولا ريب انك رأيتهُ فهلاَّ دللتنا عليهِ ولك الاجر والثواب . قال يا صاحبيَّ صدَّقاني اني لم أبصر جملكما ولم اسمع بهِ الاَّ منكما . قالا والله ان امرك عجيب فاين الجواهر والحلي التي كانت في حملهِ قال اني لم انظر جملكما ولا حليكما . فاخذا بضبيطهِ وجرَّاهُ الى القاضي فلم يثبت عليهِ غشٌّ ولا سرقة . فاتهماهُ بالسحر فدافع عن نفسهِ قائلاً انما صرتني دهشتكما وأرى انكما مسافران

على اشتباهكما في امري . اما انا فقد عرفت انكما اضعتما جملاً لاني رأيت آثار اخفاف جمل ولم أرَ بينها آثار اقدام بشر. وعرفت انهُ اعور لانهُ رعى الكلأ الثابت على احد جانبي الطريق دون الآخر. وانهُ اعرج من اثر قدميهِ في الرمل. وانهُ فاقد احدى اسنانهِ من اثر رضيهِ للعشب وان حملهُ كان عسلاً وقعًا من الذباب التجمع على احد جانبي الطريق والنمل التجمع على الآخر . انتهت القصة

وعلى هذا النسق من الاستنتاج والاستدلال كُتب كتاب نجارستان بالفارسية ومعناهُ "معرض الصور" وهو مجموع قصص وفصائد ادبية من قلم كاتب فارسي اسمهُ معين الدين الجوفايي عاش في القرن الرابع عشر . وعثر على هذا الكتاب رجل ايطاليٌّ فترجمهُ الى الايطالية وتناول الترجمة كاتب فرنسوي اسمهُ جوليت وبنى عليها حكايات سماها "الليالي البرشونية" والمظنون ان فولتير الف روايتهُ المسماة "زادج" (ولعلها صادق) على مثالها . ومن حِكَم صادق قولهُ "لا أسعد من الفيلسوف الذي يتصفّح ذلك الكتاب العظيم (الطبيعة) الذي فتحهُ الله امام عينيهِ . فان الحقائق التي يجدها فيهِ هي لهُ . وهو يغذي نفسهُ بها ويرقيها ويعيش عيشة راضية لا يخشى انسانًا" ولما امتلأ رأس صادق من هذه الافكار "طلب العزلة في بيتهِ بجوار الفرات وارتأى العمر يمدُّ ويحسب كم من الماء يرُّ في الثانية من تحت جسر مجاور لهُ وما اذا كان يقع من المطر في شهر الفيران اكثر مما يقع في شهر الغنم . ولم يخطر لهُ ببال ان ينسج الحرير من نسيج العنكبوت او يصنع الفخار من قطع الزجاج ولكنهُ درس طبائع الحيوانات والنباتات فبلغ من الغطنة مبلغًا استطاع بهِ ان يكتشف الف فرق حيث لم يرَ غيرهُ سوى سلسلة متشابهات وملابسات

وكان صادق ذات يوم ماشيًا قرب غابة فرأى رجال بطانة الملكة ونفرًا من ضباط الجيش يهرعون اليهِ ولحظ من حركاتهم ان امرًا ذا بال يشغلهم وانهم اضاعوا شيئًا ثمينًا وهم يطلبونهُ. فلما وصلوا اليهِ قال رئيس خصيان الملكة لهُ هل رأيت كلب الملكة . قال صادق انهُ كلبة لا كلب . قال رئيس الخصيان صدقت . قال صادق وهي ذات اجرية عرجاء اليد اليسرى طويلة الاذنين . قال الخصي طربًا اذًا انت رأيتها . قال صادق كلاَّ اني لم أرها البتة ولم اكن اعلم ان عند الملكة كلبة مثلها

واتفق انهُ لما فرّت كلبة الملكة فرَّ ايضًا اكرم جياد الملك من ايدي سائسهِ الى سهول بابل فجدَّ وزير الملك الاكبر وسائر رجال البلاط في أثرهِ ليمسكوهُ حتى اذا لقيوا صادقًا خاطبهُ الوزير قائلاً هل رأيت جواد الملك . قال صادق انهُ جواد كامل الخلقة موزون

الخطى علؤهُ خمس اقدام وحوافرهُ صغيرة وطول ذنبهِ ثلاث اقدام ونصف وفي فمهِ شكيمة من الذهب عيارها ٢٣ قيراطاً ونعالهُ من الفضة . قال الوزير اين هو ومن اين مرَّ . قال صادق لم ارهُ في عمري ولم اسمع بهِ

فلم يشكَّ الوزير الاكبر ورئيس الخصيان في ان صادقاً سرق جواد الملك وكلبة الملكة فساقاهُ الى حضرة الدسترهان الاعظم فحكم عليهِ بالجلد والنفي الى سيبيريا . ولم يكد الدسترهان يفوه بالحكم حتى انتشر الخبر بان الجواد والكلبة وُجدا فأُلغي حكم الجلد والنفي عن صادق وحكم عليهِ بدفع اربع مئة اوقية من الذهب لانكارهِ رؤية الجواد والكلبة . فاضطرَّ ان يدفع الغرامة اولاً وسمح لهُ ان يبرِّر نفسهُ امام مجلس الدسترهان الاعظم فقال :

" يا كواكب العدل وبحور العلم ومرايا الحق الذين لم توزانة الرصاص وصلابة الحديد ولمعان الماس وبينهم وبين الذهب شبه قريب . انكم اذنتم لي في الكلام امام هذا المجلس الموقَّر فأُقسم لكم بأُورمزد اني ما رأيت الكلبة المحترمة التي للملكة ولا الجواد المقدَّس الذي لملك الملوك . فاسمعوا ما جرى لي . اني كنت امشي نحو الغابة حيث اجتمعت بالخصي المكرَّم والوزير الاكبر المعظم . وكنت قد رأيت على الرمل آثار اقدام حيوان فاتضح لي بعد النظر انهُ كلب صغير . ورأيت بين آثار الاقدام خطوطاً فعلمت انها حادثة عن مسّ اذناب الحيوان الرمل وبالتالي انهُ انثى وضعت جراءها قريباً . وعلمت من آثار أُخرى منطبعة على الرمل بجانب آثار اليدين ان اذني الكلبة كانتا طويلتين تمسان الارض . ومن ضعف اثر اليد اليسرى ان كلبة ملكتنا الموقرة عرجاء قليلاً وارجو المعذرة على هذا الفول

اما من جهة جواد الملك فاقول انني بينما كنت امشي في الغابة رأيت آثار اقدامهِ فاذا المسافات بينها متساوية فعلمت من ذلك انهُ كامل الخلقة موزون الخطى . ورأيت الغبار مكنوساً عن الاشجار التي في جانبي الطريق على بعد ثلاث اقدام ونصف من آثار الاقدام فاستنتجت ان طول ذنب الجواد ثلاث اقدام ونصف وانهُ كان يضرب بذنبهِ ذات اليمين وذات اليسار فينفض بهِ الغبار . ورأيت تحت الاشجار علؤها خمس اقدام اوراقاً خضراء سقطت منذ عهد قريب فعلمت ان الجواد مسها فتساقطت واستدللت من ذلك ان علؤهُ خمس اقدام . ورأيت اثر الشكيمة على صخر فحلتهُ فوجدت انهُ من عيار ٢٣ قيراطاً . وكذلك رأيت اثر نعالهِ على حجارة الطريق فعلمت انها من الفضة

فدهش قضاة الدسترهان من ذكاء صادق ودقة نظرهِ . وبلغ الملك والملكة خبرهُ وبات حديث اهل البلاط كبيرهم وصغيرهم . وارتأى مجوس المملكة ان يحرق بدعوى انهُ ساحر اما

الملك فأمر برد الغرامة اليهِ فجاءهُ الاعوان والحشم بثيابهم المزركشة وهم يحملون الغرامة فاخذوا ثلاثمئة وثمانيًا وتسعين اوقية منها نفقات القضاء ونحوا غلمانهم بالطلوان واعطوهُ الباقي

واشتهر اياس عند العرب بحذقهِ وفراستهِ ومن نوادرهِ ان رجلين احتكما اليهِ في وديعة مالٍ فجحد المستودع المال . فقال للطالب اين دفعت اليهِ المال فقال تحت شجرة في مكان كذا . فانكر خصمهُ وقال انهُ لا يعرف ذلك المكان . وكان اياس قد ظنَّ الخيانة في المستودع فقال للمودع اذهب الى ذلك المكان لعلك تتذكر كيف كان امر هذا المال فربما كان المستودع رجلاً غير هذا . ففني الرجل وجلس خصمهُ ساعةً . فقال لهُ اياس اترى خصمك قد بلغ موضع الشجرة قال لا . فقال ياعدوَّ الله كيف عرفت ذلك وانت لا تعرف المكان ثم فاحضر الوديعة فاقرَّ بالخيانة وردَّ المال . ومن ذلك انهُ رأى يومًا مرعى بعير فقال هذا البعير اعور . فنظروا فكان كما قال . فقيل لهُ كيف عرفت ذلك قال وجدت رعيهُ من جهة واحدة . وسمع يومًا نباح كلب فقال هذا الكلب ينبح على شفير بئر فنظروا فكان كما قال . فقيل لهُ في ذلك فقال سمعت عند نباحهِ دويًّا من مكان واحد ثم سمعت بعدهُ صدًى يجيبهُ فعلمت انهُ عند بئر . ورأى جاريةً تحمل طبقًا مغطى بمنديل فقال معها جرادٌ . فسئل فقال رأيتهُ خفيقًا على يدها

ومن اشتهر بين كتاب الانكليز بامثال هذه القصص والحكايات كاتب اسمهُ ادجار ألن بو . جاء في احدى حكاياتهِ المسماة " الكتاب المسروق " ان كتابًا سرق من احدى غرف الملك في باريس وكان سارقهُ معروفًا لانهم رأوهُ يسرقهُ وهو من كبار وزراء المملكة . وتفصيل الخبر ان احد ملوك فرنسا أرسل كتابًا الى احدى نساء قصرهِ وبينما كانت تقرأهُ سمعت وقع خطوات خارج غرفتها فحاولت تخبئة الكتاب ولكنها لم تستطع ذلك لقصر الوقت فتركتهُ على المائدة قائلة في نفسها ان ما يترك امام الاعين قلما يكون معرض الريبة والشبهة . ولما دخل الوزير وقعت عيناهُ على الكتاب فعرف الخطَّ الذي فيهِ وكان معهُ كتاب يشبههُ فاستبدلهُ بهِ . ورأت المرأة ذلك منهُ ولكنها خشيت معارضتهُ بسبب وجود ثالث معهما فأبلغت البوليس الامر ففتش منزل الوزير في اثناء غيابهِ فلم يجد فيهِ ما يطلبهُ فقصد رئيس البوليس بوليسًا سريًّا اسمهُ دوبان وعرض الامر عليهِ فطلب دوبان منهُ وصف الكتاب فوصفهُ لهُ ثم غادرهُ ومضى . وعاد رئيس البوليس اليهِ بعد اسابيع قائلاً انهُ فتش منزل الوزير ثانية فلم يعثر على الكتاب وانهُ يعطيهِ خمسين الف فرنك اذا اتاهُ بهِ . فقال لهُ دوبان اكتب سندًا بالمبلغ وامضهِ وانا أعطيك الكتاب فكتب السند فاعطاهُ الكتاب

فدهش ناظر البوليس اشدَّ دهشة فطفق دوبان يشرح لهُ كيفية عثوره بالكتاب قال ان القاعدة التي جرى عليها للاهتداء اليهِ هي قولهم "ضع نفسك مكانهُ" فوضع نفسهُ مكان الوزير وقال ان البوليس لا بدَّ ان يطرق منزلهُ وينتشهُ وكان يغيب عنهُ عمدًا ليمكّن البوليس من تفتيشهِ فيفتشهُ ولا يجد شيئًا واستدلَّ دوبان ان الوزير لم يخبىء الكتاب جريًا على المعروف من ان الاشياء الظاهرة للعيون قلما يشتبه في امرها . وعليهِ أمَّ دار الوزير فوجدهُ فيها وكان دوبان لابسًا نظارات سوداء ليتمكن من رؤية كل ما في غرفة الوزير من غير ان يُنتبه اليهِ وادعى ان الذي حملهُ على لبس النظارات السوداء داء الم بعينيهِ . وبينما كان يحدث الوزير لمح في الغرفة علبة صغيرة معلقة بشريطة زرقاء قذرة وفيها بطاقات زيارة وورقة وسخة ممزقة عليها ختم الوزير ومعنونة بخط امراة ويظهر لكل من يراها انها أُلقيت في العلبة القاء الاوراق المهملة

فاستنتج ان هذه الورقة هي الكتاب المنشود وعزم على سرقتها من مكانها تودّع الوزير بعد ان ترك علبة سعوط ذهبية كانت معهُ على المائدة عمدًا وخرج . وفي صباح اليوم التالي عاد يطلبها . وبينما كان جالسًا يحدث الوزير اذا بصوت طلق ناري خرج من تحت نافذة الوزير وتلا الصوت صيحة هائلة وصراخ شديد وكان دوبان قد دبَّر ذلك من قبل . فهب الوزير من مكانهِ الى النافذة وفتحها واخذ ينظر خارجًا . اما دوبان فاسرع نحو العلبة وانتشل الكتاب منها ووضع مكانهُ كتابًا آخر كان قد اعدَّهُ من قبل وطواهُ طيَّ الكتاب المسروق ثم ودّع الوزير وخرج ظافرًا وبذلك تمت الحيلة

ومن هذا القبيل حكاية البوليس لكوك في احدى روايات اميل جابوريو ومآلها ان مالاً وافرًا سرق من خزانة حديد من بنك ولم يعرف سارقهُ . وبينما كان لكوك يحادث احد رجال البوليس التابع لهُ سألهُ هل تذكر هيئة الخدش الذي رأيتهُ على الدهان الاخضر المدهون بهِ باب الخزانة فانك صحت لما رأيتهُ وفحصتهُ جيدًا واقتنعت انهُ خدش جديد . فقل لي ما هي الاداة التي احدثتهُ . الظاهر انها مفتاح . فاذا كان الامر كذلك فقد كان يجب عليك ان تطلب مفتاح البنكير والصراف فلا بدَّ ان يكون بعض الدهان الاخضر عالقًا باحدها

وكان لكوك قد صوَّر الخزانة والخدش واضح كلَّ الوضوح فيها وهو ممتدٌّ من ثقب القفل نازلاً بانحراف من اليسار الى اليمين . فقال للرجل الذي تحت امرهِ لا بدَّ انك تصورت ان اللص الذي سرق المال من الخزانة هو الذي احدث الخدش فيها فلنظر ان كنت مصيبًا في

تصورك هذا. فان عندي خزانة حديد صغيرة مدهونة بالدهان الاخضر مثل الخزانة المسروقة وها هي تحت المفتاح وجرّب ان تحدثها. فاخذ الرجل المفتاح وحاول خدش الخزانة فلم يفلح. فقال لكوك ان ذلك صعب واصعب منهُ خدش الخزانة الاخرى لان دهانها اصلب واكشف وعليهِ فلا يمكن ان يكون الخدش قد حدث بيد لص يرتجف بل بيد قويّة. ثم تناول لكوك المفتاح وهمّ بوضعهِ في القفل وقال للرجل الفرض اني اريد فتح هذه الخزانة وانك تريد منعي من ذلك فاذا تفعل. قال اني امسك ذراعك واشدّها نحوي قال لكوك فافعل كذلك فامسك الرجل ذراع لكوك وجذبها نحوهُ بعنف ولكوك يحاول فتح الخزانة فاحدث المفتاح خدشاً فيها مثل الذي في الصورة. واستنتجا من ذلك ان رجلين حضرا سرقة خزانة البنك لا واحد وان احدهما كان يريد اخذ الدراهم والآخر كان يمنعهُ وكان كذلك كما ثبت فيما بعد

هذا وان ما فعلهُ اهل الفراسة في القصص المتقدمة وان يكن خيالياً ليس باعظم مما يفعلهُ رجال البوليس السري حقيقةً كلَّ يوم ولا اعجب منهُ بل ان رجال البوليس السرّي في لندن وباريس وتيوورك وغيرها من مدائن الغرب الكبرى يظهرون من اساليب الدهاء والفراسة ويتفننون في فتق الحيل لاكتشاف المخبآت الى حدّ يفوق التصوّر والتصديق وحكاياتهم بهذا الصدد كثيرة تملأ المجلدات الضخمة

الرفّاش

The Man with the Hoe.

الرفاش اسم لصورة مشهورة تمثل رجلاً من العمّال رفشهُ في يدهِ وقد استند اليهِ ونظر الى الظلاء ساهياً كأنهُ لا يعي على شيء. رأى هذه الصورة المستر ادوين مركام فنظم فيها قصيدة مشهورة ترجمناها بما يلي

على عاتقيهِ رزايا الدهورِ فلا تعجبنَّ لظهر حني
ورزايا ازالت نضارة وجهٍ فلا يستفزّ ولا يثني
فاين السرور واين الرجاء وكل بهيج ومستحسنِ
واين الهموم واين النمومُ وكل شعور بها قد فني
فمن درسٌ فيهِ سموم الخمولِ واطفأ منهُ الضياء السني